الأدب الشعبي

للأستاذ محمود تيمور

بقية ما نشر في العدد الماضي

إني على يقين بأن العمل الفني إذا توافر له جوهر الأدب من إثارة العاطفة، ومنادمة الوجدان، ومن تناول العناصر الحية في المجتمع البشري، ومن تصوير النزعات النفسية النابعة من موارد إنسانية أصيلة، فإن هذا العمل الفني صالح لأن يكون شعبيا يستمرئه الناس على اختلاف مراتبهم من المعارف والمدارك؛ وأنهم ليستجيبون له، ويتأثرون به، ويجدون له في أنفسهم بلاغا ليس وراءه بلاغ

أعرف فيما أعرف سيدة تقرأ العربية، ولكنها غير متضلعة منها، فأما الشعر العربي فإنها لا عهد لها به، ولعلها تتجنبه ثقة منها بأنها لا تملك له فهما. وأظهر ما تتميز به هذه السيدة أن عاطفة الأمومة تتوهج بين جنبيها أيما توهج، فهي بهذه العاطفة تحيا ولها تعيش، ويوما عرضت على إحدى المجلات مشيرة فيها إلى أبيات من الشعر يناجي بها الشاعر طفله، وما عتمت أن أخذت تقرأ على هذه الأبيات، جياشة الحاس مستعذبة ما تقرأ، مسهبة في شرح ما تجد من جميل المعاني، تدلني بذلك على أنها فهمت مرامي الشاعر وأغراضه، وأن غمت عليها مدلولات الألفاظ على الوجه الدقيق. فهذه السيدة قد تأثرت عاطفتها بتلك الأبيات، طوعا لما تضم بين جوانحها من مشاعر الأمومة المتوقدة، فالشاعر قد عالج لها موضوعا ينزل من نفسها في المكان الأول، وعبر لها عما تشعر به الأم نحو طفلها تعبيرا فنيا جميلا، فيه النغمة الموسيقية التي هي أقرب إلى هدهدة الطفل في مهده الحبيب، ومن ثم استجابت الأم لهذا اللون من الشعر: لا بما تفهمه وتعقله في هذا الفن من الأدب، ولكن بما استشعرته لذلك الموضوع الذي عالجه الشاعر الفنان، وكان حسبها في هذه الاستجابة جملة ألفاظ فهمتها من أبياته، فكانت هذه الألفاظ جسرا يصل بين شعورها وشعوره

وأذكر أني كنت في عهد الصبا أحرص على شهود المحافل التي يلقي فيها شاعر النيل «حافظ إبراهيم» قصائده الشعبية في الشؤون الاجتماعية والسياسية العامة. وكان كعهده يؤثر أناقة اللفظ وجزالة العبارة حتى ليفتقر النفس المتأدبون في فهم كلماته إلى معجم، وأنا يومئذ قليل الزاد من الفصحى، ولكني على الرغم من ذلك ما أكاد استمع إلى «حافظ» ينشد، حتى أحس معانيه تنساب إلى نفسي انسيابا، وإذا أنا أداجيه وأسايره بعاطفتي وشعوري؛ ذلك لأن الموضوعات التي يعالجها الشاعر كانت ملء أسماعنا، والأحداث التي يستوحيها كانت تشغل بالنا، ولم يكن جمهور «حافظ» من المثقفين خاصة، وإنما كان خليطا من طبقات الشعب، يفهمون عنه، ويتأثرون به، ويصفقون له في صدق وإيمان. ولست أنسى حفلا شعبيا شهدته في «حديقة الأزبكية» لذلك العهد، فأنشد فيه «حافظ» إحدى روائعه، وكان بين جمهور السامعين كثير من ذوي الجلاليب، وهم يطربون للشعر، ويهتاجون بالإنشاد، ويتصايحون في تهلل وإعجاب

وإليك ما عرفت من شأن «طاغور» وجمهوره، فقد كانت حلقته التي ينشد فيها أشعاره تحفل بالحشد الوافر من جمهور الشعب غير المثقف، وبينهم الحفاة العراة المهازيل، وكان أولئك يصغون إلى «طاغور» مرتلا شعره، وكأنهم

مهرجان الحرية و (ميدان التحرير)!

فمن حق الشعب إذن أن يقيم هذا المهرجان العظيم مزهوا بجهاده، فخورا بقواده، معبرا بهتافه المرتفع، وتصفيقه المدوي، وحماسه المتقد، وسروره الدافق، عن اطمئنانه الواثق إلى حاضره المستقر، وعن أمله الفسيح في مستقبله المشرق

احمد حسن الزيات

فى معبد يشتركون فى صلاة ، وأعينهم تفيض من الدمع تأثرا واستجابة ، وكذلك استطاع هذا الجمهور الساذج أن يستشعر الجمال والروعة فى قصائد بالغة من السمو الفنى والفلسفى أرفع الدرجات ، وإنما تسنى للجمهور أن يساير أدب « طاغور » بثلاث : الأولى أن الشاعر يتناول من الموضوعات ما يشغل بال الناس ، وما يحسونه فى صميم قلوبهم أوفر إحساس ، فهم حين يصغون إلى الشاعر فإنما يصغون إلى زفرات نفوسهم وأصداء عواطفهم صادقة الوحى والإلهام . والثانية أن قصائد « طاغور » أقرب فى أسلوبها وجرسها إلى النغمة الموسيقية منها إلى ألفاظ تتألف من حروف . والثالثة أن « طاغور » كان يلقى شعره فيحسبه السامع مغنيا يترنم . وثمة ناحية رابعة ليس من الخير إغفالها ، تلك هى أن فلسفه « طاغور » التى ينطوى عليها شعره أدنى إلى التصوف والتعبد منها إلى فلسفة المذاهب والآراء ، والإنسان صوفى بالفطرة ، متعبد بالطبع ، ولم تكن هذه المعانى التى يجلوها « طاغور » فى فلسفته الصوفية إلا معانى إنسانيه كامنة فى النفس البشرية ، فلا هى بجديدة على الإنسان ولا هى بمستغلقة عليه ، بل هى فى سريرته مستخفية تلتمس من يثيرها من الأعماق

لسائل أن يقول : أفى المستطاع أن يتذوق جمهورنا العربى من فن « طاغور » ما يتذوقه جمهوره ؟

لا سداد فى الإجابة عن هذا السؤال بنفى أو إيجاب ، فإن كثيرا من الألوان الأدبية ، وبخاصة الشعر ، لا يكاد يسوغ إذا نقل إلى لغة غير لغته لأنه يفقد بالترجمة خصائص وقعه الموسيقى وكيانه الفنى ، ولا تبقى منه إلا الظلال وأشباح أو هياكل معروقة من عظام . ولو كان فى المقدور أن يترجم أدب « طاغور » ربانا بموسيقيته الفنية ، وفاقا بصوفيته الإنسانية ، لكان حريا أن يتأثر به الجمهور الكبير حيث يكون

وهذا « شكسبير » الشاعر العبقرى الذى نقرأه اليوم فى إمعان وروية ، محاولين استشفاف الغامض من معانيه ، والدقيق من تأملاته الفكرية وتحليلاته النفسية . لقد كانت مسرحياته تمثل على أعين النظارة من عامة الشعب ، كانوا أمشاجا من الناس يتباينون فى مراتب الثقافة والذوق ، ولكنهم استساغوا من فن « شكسبير » ما يساير عواطفهم وما يلائم مزاجهم ، واستمرأوا ما كان يمازجهم به من مفارقات الحياة وأضاحيك المجتمع ، فى سخرية لاذعة ، ونقد طريف ؛ وما كان يهزهم به من صور المآسى والفواجع ، فى لوعة مريرة ، وتحسر أليم . فالشعب فى ذلك كله مستجيب له أعمق استجابة ، فتارة هو واجد حزين ، وطورا هو مستمتع طروب

على الأديب الفنان الذى يرى أدبه محجوبا عن الجمهور ، فيسىء الظن بهم ، ويسرع إلى وهمه أن الناس لا يستطيعون التلقى عنه ، عليه أن يسأل نفسه : أموصول هو حقا بالشعب يعبر عن خوالجه ، ويصور منازعه ؟ فإن كان كذلك حقا فليسأل نفسه ثانية : هل ابتغى الوسيلة التى يتسنى بها للجمهور الإقبال على أدبه ؟ وإن فى الجواب عن هذا السؤال جانباً خطيراً من سر العلاقة بين الفنان الكاتب والجمهور القارئ

وليس بعازب عنا عقم الوسائل التى تتأدى بها الكتب الأدبية إلى أبدى الشعب ، فإن هذه الكتب لا تكاد تصل إلى الناس إلا بجهد ، فالكاتب والقارئ كلاهما يلقى من ذلك إعناتا ورهقا . وفى مقدورك أن تعزو العزلة التى يعانيها الأدب الفنى إلى أن الجمهور يجهل وجوده ، وأنه لا يجد تنبيها إليه ، وربما وجد سبيلا غير ميسور ؛ فللجمهور عذر مبسوط فيما يلاحظ من ضعف إقباله على الأعمال الفنية التى ينهض بها الأدباء

وفى هذا المقام يطيب لى أن أشير إلى أن إحدى الفرق التمثيلية ضاقت بما تجد من تراخى الجمهور عما تقدمه من مسرحيات فنية أصيلة ، وكانت تعلل ذلك بادئا بأن الجمهور

لا يسمو إلى هذا المستوى الرفيع . وأخيرا خطر للقائمين على تلك الفرقة أن يلتمسوا بعض السبل إلى اجتذاب الناس، فخفضوا أسعار الدخول حتى قاربوا بها أسعار الدخول فى الدور السينمائية ، وبسطوا لطلاب المعاهد وأساتذتها شيئا من الامتياز فى الخفض ، فازدحم المسرح برواده ، واحتفظت الفرقة بمستواها ، ولقيت من الإقبال والاستحسان مالم يكن يدور فى الحسبان

ومما لاحظناه منذ عهد قريب أن بعض دور النشر أخذت تقدم طبعات جديدة من المؤلفات الأدبية الرفيعة ، ميسورة الأثمان ، تعرض مع باعة الصحف على أنظار الناس ، فراجت هذه الكتب ، وبيع منها الألوف والجمهور هو الجمهور ، لم يزدد علما ولا ثقافة بين عشية وضحوة ، وإنما الفضل كل الفضل لهذه الوسيلة الجديدة فى نشر الكتب وعرضها على جمهرة القارئين . وليس أدل على نصوع هذه الحقيقة من أن بعض تلك الكتب كان مطبوعا على الطريقة القديمة من قبل ، ولم يكن المطبوع منه يزيد على ألفين أو ثلاثة ، وما تزال منه بقية فى المكتبات لم تبع بعد ، فأما هو فى طبعته المحدثة ، بهذه الطريقة الميسورة ، فإن المطبوع منه يربى على عشرين ألفا ولا يكاد يظهر حتى تنفد نسخه فى أيام معدودات

ومن طريف ما حدثنى به أستاذ فرنسى صديق ، أنه يسكن شقة فى مبنى كبير فى باريس ، وعلى باب المبنى يقوم بواب مشغوف بالقراءة ، فبين يديه دائما كتاب يطالع فيه ، وقد عنى الصديق بأن يتعرف ما يقرؤه ذلك البواب المتأدب ، فإذا هو الأدب المسف الرخيص ، فخطر له أن يزاول معه تجربة لايدرى أتخفق أم تفلح ، فدفع إليه كتابا من الكتب ، وترك له أن يقرأ إذا راقه أن يفعل ، فأخبره البواب بأنه قرأه فى ليلة واحدة ، وأنه أعجب به . ولم يكن الكتاب مغامرة من مغامرات « أرسين لوبين » وإنما كان كتاب « أنا كارنين » لتولستوى . ومنذ ذلك اليوم أخذت المكتبة القصصية الرفيعة التى يقتنيها الأستاذ الفرنسى تستعار كتابا كتابا لهذا البواب ، فيعب ماشاء أن يعب ، وكذلك أثمرت التجربة وأصبح البواب القارئ من عشاق الأدب الرفيع

هذه خواطر فى معنى الأدب الشعبى ، أردت بها توجيه الأنظار إلى تصحيح مدلوله ، والكشف عن حقيقته ، فلقد طالما أسئ فهمه ، وشدما عدل به عن وجهه . ولقد آن لنا أن نرد إليه اعتباره ، ونوفيه حقه ، فإننا نظلم الأدب إذا باعدنا بين الشعب وبينه ، كما نظلم الشعب إذا نقصنا من متعة الأدب حظه . وهل للأدب موضوع إلا الشعب ؟ وهل للشعب مرآة إلا الأدب ؟

محمود تيمور

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بإدارة مخازنها بالعباسية بالقاهرة لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ٢١ / ٢ / ٩٥٣ :

(١) عن توريد السائل الدموى البشرى الطبيعى والصناعى.

(٢) عن توريد البنسلين اللازمة للوزارة لعام ٥٢/١٩٥٣ وتطلب قوائم المطائين من الإدارة المذكورة مقابل دفع ثلاثمائة مليم للنسخة الواحدة من المناقصة الأولى وأربعمائة مليم من المناقصة الثانية وتطلب القوائم على ورق تمنه فئة ٥٠ مليما ٣٥٥٢